ضوابط تدبرالقرآن

منزلته حكمه علامته وفوائده.

د. سمير جاب الله
جامعة الامير عبد القادر
للعلوم الاسلامية – قسنطينة -

مداخلة مقدمة في ملتقى فهم القرآن والسنة في ضوء علوم العصر المنعقد يومي:12-13 ديسمبر 2011، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلى على الظالمين، لك الحمد مولانا على نعمة الإسلام، ولك الحمد على نعمة الإيمان، لك الحمد على نعمة الإحسان، ولك الحمد على نعمة القرآن.

أما بعد: فإن علاقة المداخلة بموضوع الملتقى أن صنفا من الناس في زماننا قصروا في فهم الكتاب المنزل من عند الله فكان لا بد من تصحيح الفهم توجيه المسار.

فأصناف الناس في تعاملهم مع القرآن أربعة.

صنف آمن به وصدقه وعمل بمقتضاه ، فأحل حلاله وحرم حرامه، فهؤلاء مع السفرة الكرام البررة.

وصنف كفر به ولم يؤمن بما أنزل على محمد، وهؤلاء لم يحظوا بهداية القرآن، وخسروا الدنيا والآخرة.

وصنف اعتبروا القرآن الكريم نصا بلاغيا أخضعوه للدرس والتحكيم والتقييم، وهم الحداثيون، فظلموا القرآن.

وصنف أحبوا القرآن وحفظوا حروفه، ورتلوا آياته، وجودوا سوره، وأحسنوا تلحينه، لكنهم لم يلتفتوا إلى مدلولاته، ولم يغوصوا في أحكامه، وكلامي في هذه المداخلة موجه لهذا الصنف من الناس، لأنه لا يخفى على عاقل ما أصاب الأمة من ضعف في إدراك مغازي القرآن وما انتابها من تراجع في الاهتمام بمعانيه ، حيث انحسر جل الاشتغال بالقرآن الكريم في زماننا على حفظه وتجويده وتلاوته، والاشتغال بالإجازات وتحصيل الروايات وربما اقتصر التعامل على حسن قراءته بمختلف الألحان والأنغام والمقامات، في حين غفلوا عن التدبر والتمعن والتفكر والتذكر، وترتب على ذلك ترك العمل به أو التقصير في ذلك.

والدليل العملي على ما أقول أننا نجد تسجيلات صوتية ومرئية لتلاوة القرآن ولا نجد تسجيلات لفهم معاني القرآن.

إننا نجد قنوات خاصة بتلاوة القرآن بمختلف الروايات والقراءات، أو نجد قنوات تعنى بالمقامات والألحان، ولا نجد قنوات خاصة بالتفسير أو بشرح معاني القرآن.

لو اطلعنا على الجمعيات القرآنية أو الزوايا فإننا نجد معظمها يعتني بحفظ القرآن وتجويده، وقل ما نجد جمعيات أو زوايا تعنى بتفسير القرآن وتعليم شرح مفرداته ومعانيه.

لو اطلعنا على برامج المدارس القرآنية فقل ما نجد مادة تفسير القرآن مدرجة، وإن كانت مدرجة فهي قليلة.

إننا نجد مسابقات كثيرة في حفظ القرآن وترتيله، وقل ما نجد مسابقات في تفسير القرآن الكريم.

وربما استدل من يشتغل بالتلاوة فحسب بقوله تعالى: (**الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به**)) [البقرة: 121].،وبقوله تعالى" (**ورتل القرآن ترتيلا**)[**المزمل 04**]

نقول صحيح أن التلاوة والقراءة مطلوبة ويؤجر عليها القارئ بكل حرف عشر حسنات كما ورد في الآثار، لكن يجب أن نعرف المعنى الشرعي للتلاوة، و لا بد أن أعود إلى مفهومها الصحيح ومدلولها الحقيقي حتى ننتفع بها ، وحتى نتلو القرآن كما أراده الله، خاصة وأن الله تعالى يقول،[**حق تلاوته**]، فما هي التلاوة الحقة التي يقصدها البيان الإلهي،

فالتلاوة لها معاني كثيرة :

فقد يراد بها القراءة، أنا أتلو الكتاب أنا أقرأ الكتاب.أنا أتلو الجريدة، أي أقرأها. وهذا هو الذي يتبادر من أول فهم للآية.

وقد يراد بها الإتباع لأن من اتبع غيره يقال تلاه، ونحن نقول في كلامنا، التالي، أي الذي يأتي بعده، أي الذي يتبعه، قال الله تعالى في سورة الشمس[**والشمس وضحايها، والقمر إِذَا تلاها** [الشمس : 2]، هل القمر يتلو؟ ، هل القمر يقرأ؟، لا، وإنما المراد القمر يتبع الشمس

والمعنى الثالث هو **تلاوة المعنى وهي التفسير،**

فالمقصود من التلاوة في الآية هي كل هذه المعاني مجتمعة وقد أمرنا الله بها(1).

قال ابن عباس في تفسيره لهذه الآية: يتلونه حق تلاوته، أي:"يتّبعون حق اتّباعه". وروي عنه:"**يحلون حلاله ويحرمون حرامه ، ولا يحرفونه**"(2)

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: "والذي نفسي بيده ، إن حق تلاوته : أن يحل حلاله ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله ، ولا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئا على غير تأويله"(3).

وقال الحسن:"(يتلونه حق تلاوته) قال: يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه"(4).

هذه هي التلاوة الحقيقة، التي تجمع بين القراءة والعمل والتأدب بآداب القرآن وأن نحل الحلال ونحرم الحرام.

---

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي:95/2، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية تحقيق:هشام سمير البخاري، طبعة : 1423 هـ/ 2003 م

(2) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، 377/1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1418هـ، 1997م.

(3) تفسير ابن كثير، 403/1، تحقيق، سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: ثانية، 1420هـ، 1999م.

(4) الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي:95/2

ولو تتبعنا التاريخ، لوجدنا أن المشكلة قديمة، فمنذ العهد الأول صرف الناس عن التدبر إلى مجرد القراءة أو التلاوة، ولقد حاول السلف الصالح رضوان الله عنهم الرجوع بالأمة إلى الجادة.

جاء رجل بابنه إلى أبي الدرداء فقال:" يا أبا الدرداء، إن ابني هذا جمع القرآن، فقال:اللهم اغفر، إنما جَمَعَ القرآنَ من سمع له وأطاع(5).

انظر كيف صحح أبو الدرداء المفهوم ودله على الجمع الحقيقي الذي هو السمع والطاعة.

وعن ابن عمر – رضي الله عنه – قال: "كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة ونحوها ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة [ويقصد في زمانه] يقرؤون القرآن، منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به"(6).

و قال ابن مسعود: إنا صعب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به، وإن مَنْ بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به"(7)

فالداء قديم، والمسألة معروفة عند السلف، ولقد تفطن لها الصحابة وحاولوا الرجوع بالأمة إلى جادة الصواب، وها هو هذا الملتقى سمح لي أن أقدم هذه الكلمات للرجوع إلى الفهم الصحيح الذي أراده منا الباري عز وجل عندما خاطبنا بقوله في سورة ص:29[**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**]حتى يكون القرآن كتاب عمل وهداية، وسبيل نجاح وفلاح لا مجرد صحائف تتلى أناء الليل وأطراف النهار –على فضلها وكثرة أجرها–، ولا مجرد مقاطع تطرب النفوس ، وتهز الأبدان، وتُدمع العيون وتقشعر منها الجلود – على بركتها–.بل الذي نريده من القرآن الكريم هو ما كان أعمق من القراءة، و أبعد من التلاوة، و أنفع من الحفظ المجرد ومن التغني، وهو التدبر والتمعن وبالتالي الانصياع والاستسلام والانقياد.

تعريف التدبر

فلا شك أن التدبر هو البوابة التي نلج من خلالها إلى فهم معاني كلام الله، و هو طريق إلى الاتباع، وأول خطوة نحو العمل.

وأصل التدبر في اللغة :التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، فهو مشتقّ من الدُّبر ، أي الظَّهر، يقال: تدبّر إذا نظر في دبر الأمر ، أي في ظهر الأمر وغائبه و عاقبته(8).

---

(5) فضائل القرآن للقاسم بن سلام، باب ما يوصف به حامل القرآن من تلاوته، حديث رقم:133

(6) الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، 40/1

(7) المرجع السابق

(8) لسان العرب،مادة: د ب ر.

ثم توسع الاستعمال اللغوي حتى استعمل التدبر في كل تأمل سواء كان نظراً في حقيقة الشيء أو في عوارضه ، في أجزائه أو كلياته، في سوابقه أو لواحقه، في وأسبابه ونتائجه، في أوائله ومنتهاه، في كل هذا يسمى تدبرا[9].

أما في الاصطلاح:قيل في معناه: "هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة"[10].

وتلاحظون الربط بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، فأنا أتدبر الآيات، أي أنظر في مدلولاتها، في مقاصدها، في نظمها ورسمها، في أوامرها ونواهيها، في حلالها و حرامها، في حقيقتها ومجازها، في ظواهرها وبواطنها، فيما يترتب عليها من نعيم مقيم أو عذاب أليم، كل هذا يقال له تدبر. لأنه ليس النظرة السطحية للآيات، وإنما هو النظر إلى عواقب وأدبار هذه الآيات.

الفرق بين التدبر والتفكر:

التفكر، هو طلب الفكر، وهو التأمل،[11] وعرف بأنه يد النفس التي تنال بها المعلومات كما تنال بيد الجسم المحسوسات، وقيل أيضا بأنه: | "تصرف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب"[12].

فالتفكر هو طريق لمعرفة الأشياء، وعلاقته بالتدبر قريبة جدا ؛ فالتدبر عبارة عن النظر في عواقب الأمور و التفكر هو النظر في الدليل ، فإذا نظرت إلى الدليل فهو تفكر وإذا نظرت إلى عاقبة الأمر فهو تدبر.

الفرق بين التدبر والتذكر:

التذكر نقيض النسيان، ومنه قول الله **وذَكِّرْ فإن الذِّكْرَى تنفع المؤمنين، وهو** : استحضار الذهن ما كان يعلمه، وسواء استحضار الذهن ما هو منسي و استحضر ما كان غافلا عنه. [13]

فالتذكر هو استحضار بعد النسيان، والتفكر هو النظر في الدليل، والتدبر هو النظر إلى عاقبة الأمر ومنتهاه.

---

(9) انظر:روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين الألوسي،92/5، دار إحياء التراث العربي – بيروت، لبنان.

(10)–االتدبر لكتاب الله ،عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ص:10

(11) الصحاح في اللغة.مادة، فكر.

(12)–التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص: 194)، التعريفات للجرجاني (ص: 88)، غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ص: 384).

(13) انظر:التحرير والتنوير . الطبعة التونسية (23/ 252)

مكانة التدبر في القرآن الكريم:

القرآن الكريم أمرنا بالتدبر في آيات كثيرة، منها:

الأولى: قوله: في سورة ص:29[**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**]

ومنها قوله: في سورة النساء:[**فَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**]،

ومنها أيضا في سورة محمد [**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**].

ومنها قوله: **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ المؤمنون:(68)**

ومعنى الآية الأولى أن الغرض الأساس من إنزال القرآن هو التدبر والتذكر لا مجرد التلاوة على عظم أجرها. فإذا لم يكن ذلك ، فاتت الحكمة من إنزال القرآن ، وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها .

وهذه اللام ليتدبروا تسمى عند أهل المعاني بلام العلة ، أو لام الحكمة، أي من أراد أن يكون هذا الكتاب مباركا له، ومباركا عليه في جميع أموره ،في أفعاله في تقلباته فعليه بالتدبر.

فربنا عز وجل في الآية الأولى لم يحجر عقولنا، بل أمر بالتأمل، والنظر في مآلات الأمور وأدبارها ومراميها البعيدة، وهذا يفتح للإنسان آفاقا كثيرة في البحث، والاستنباط، والاستدلال، والاجتهاد، ويغلق كل أبواب التقليد، و الجمود والركود، والخمول والخنوع.

فالقرآن بأمره لنا بالتدبر يريد منا الإيجابية ولا يريد منا السلبية، وفي هذا رد على من يقول بأننا لا نستطيع تفسير كلام الله إلا بما ثبت عن رسول الله، أو لا نستطيع أن نفسره إلا بما فسره به الأوائل. لا لكل عصر اجتهاده، ولكل وقت علماؤه، ولكل زمن استنباطاته، فما دام الكل متمسكا بالكتاب والسنة فلا مانع من أن نحلق بعقولنا وننطلق بفهوماتنا ، لا مانع أن تكون فروعنا باسقة ما دامت أصولنا ثابتة.

التدبر لا نهاية له:

والتدبر بهذا المعنى الواسع لا نهاية له، يقول الإمام القرطبي:" فكان في هذا رد على فساد قول من قال: لا يؤخذ من تفسيره إلا ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومنع أن يتأول على ما يسوغه لسان العرب. وفيه دليل على الامر بالنظر والاستدلال وإبطال التقليد، وفيه دليل على إثبات القياس"(14).

وقال سهل بن عبد الله التستري : " لو أعطي العبدُ بكلِ حرفٍ من القرآن ألفَ فَهْمٍ لم يبلغْ نهايةَ ما أودع الله في آية من كتابه، لأنه كلامُ الله ،وكلامُه صفتُه، وكما أنه ليس لله نهايةٌ، فكذلك لا نهايةَ لفهم

(14) الجامع لأحكام القرآن:290/5.

كلامه .. وإنما يَفهم كلٌ بمقدار ما يفتح الله على قلبه، وكلامُ الله غيرُ مخلوق، ولا يبلغُ إلى نهايةِ فَهْمِهِ فُهومٌ محدَثَةٌ مَخْلوقَة "(15).

كما أن أصغر العبارات قد يستنبط منها المعاني الكثيرة، جاء في تفسير التحرير والتنوير:" وإنما يكون ذلك [ويقصد به التدبر] في كلام قليل اللفظ كثير المعاني التي أودعت فيه، بحيث كلما ازداد المتدبر تدبراً انكشفت له معان لم تكن بادية له بادئ النظر"(16).

فالتدبر عملية جادة، متواصلة في كل الأزمان والأمكان، غير منقطعة وغير منتهية.

مكانة التدبر في السنة:

هذا ما جاء في لقرآن من الأمر بالتدبر، أما سنة المصطفى، فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أنه قال: «بلغني أن رسولَ الله –صلى الله عليه وسلم– صلَّى بالناس صلاة يُجهر فيها ، فأسقط آية ، فقال : يا فلان ، هل أسقطتُ في هذه السورة من شيء ؟ قال : لا أدري ، ثم سأل آخر ، حتى سأل اثنين أو ثلاثا ، كلُّهم يقول : لا أدري ، فقال هل فيكم أُبي ؟ قالوا : نعم يا رسولَ الله ، قال : فهو لها إذا ، ثم قال : يا أُبيُّ، هل أسقطتُ في هذه السورة من شيء ؟ قال : نعم ، آية كذا ، قال : ما منعك أن تفتحها عليَّ ؟ قال : ظننتُ أنها نُسِخَت أو رفعَتْ ، ثم قال رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– : ما بال أقوامِ يتلَى عليهم كتاب الله فما يدرون ما يُتْلى منه مما تُرِك ، هكذا خرجتْ عظمةُ الله من قلوب بني إسرائيل ، فشهدتْ أَبدانُهم ، وغابتْ قُلُوبُهم ، ولا يَقْبَلُ الله من عبد عملا ، حتى يشهدَ بقلبه مع بدنه». (17)

والمعنى لا يقبل الله قراءة شخص حتى يشهد بلسانه مع عقله ويعمل بجوارحه، وهذا هو واقع الأمة المحمدية اليوم، شهدت أبدانها بالقرآن وغابت عقولها

.فيجب التوازن بين الحفظ والتلاوة والتجويد من جهة وبين الفهم والتدبر. ومن ثم العمل به من جهة أخرى.

(15) البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي،26/1 ، دار أحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الاولى 1376 هـ - 1957 م.

(16)–التحرير والتنوير . الطبعة التونسية (23/ 252)./

(17)–انظر: جامع الأصول من أحاديث الرسول، رقم: 3924، 248/5

ومما يشهد أيضا ما رواه أبو هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **"ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده"**(18).

وتدراس القرآن الكريم هو عين التدبر، فكان جزاؤه السكينة والرحمة والذكر والرضا والرضوان من الله عز وجل.

أما الدليل العملي على تدبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رواه حذيفة – رضي الله عنه –: **"أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فكان يقرأ مترسلاً ، يعني ببطء، بتؤدة، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ"**(19).

ما الذي حمل رسول الله ρعلى أن يسبح في موضع التسبيح، ويستغفر في موضع الاستغفار، ويدعو في موضع الدعاء، ويستعيذ بالله في موضع الاستعاذة، إنه التدبر، لأن رسول الله فهم الخطاب، فهم بأن يريد منا في هذه الآية أن نسبح فسبح، ويريد منا في هذا الموضع أن نستغفر فاستغفر،

فهذا الحديث تطبيق نبوي عملي للتدبر .

حكم التدبر

ودلت هذه الآيات والأحاديث والآثار على وجوب التدبر ليعرف معنى القرآن لكريم، وبيان ذلك:

1 – أن الله عز وجل ذم المنافقين بأنهم لا يتدبرون القرآن وأن قلوبهم مقفلة، وبأنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا، والذم يترتب عليه العقاب، وما ترتب عليه العقاب كان القيام به واجبا.

2- قول الله تعالى،[**وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا**] [الفرقان: 30] فقد اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربه أن قومه هجروا القرآن، وعدم التدبر نوع من أنواع الهجران.

قال ابن كثير: "وترك تدبره وتفهمه من هجرانه"(20).

وقال ابن القيم: "هجر القرآن أنواع... الرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به"(21).

---

(18) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر 2699، وغيره.

(19) رواه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل رقم:772

(20) تفسير ابن كثير ، 108/6دار طيبة للنشر والتوزيع ، المحقق :سامي بن محمد سلامة، الطبعة : الثانية 1420هـ - 1999 م

(21) الفوائد للإمام ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة:1393هـ، 1973م.

3- ويدل على الوجوب أيضا أن الله مثل الذي لا يتدبر بأقبح الأمثلة وأبشعها، فقال تعالى:[**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُواْ التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** [الصف:5].

قال الطرطوشي رحمه الله: "فدخل في عموم هذا من يحفظ القرآن من أهل ملتنا ثم لا يفهمه، ولا يعمل به".

4-ومن الدلائل على الوجوب أيضا قوله تعالى: ((**ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون)) [البقرة: 78]**.

قال الشوكاني: "وقيل: (الأماني: التلاوة) أي: لا علم لهم إلا مجرد التلاوة دون تفهم وتدبر".

5-ومن الدلائل أيضا ما وصف به الخوارج بأنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، أي: إنهم يأخذون أنفسهم بقراءة القرآن، وهم لا يتفقهون فيه ولا يعرفون مقاصده.

قال النووي رحمه الله: "المراد: أنهم ليس لهم فيه حظ إلا مروره على لسانهم، لا يصل إلى حلوقهم، فضلا عن أن يصل إلى قلوبهم، لأن المطلوب تعقله وتدبره، بوقوعه في القلب".

كل هذه الأدلة تدل على وجوب التدبر وتذم الهجر والإعراض والنسيان.

إلا أنه ينبغي أن ننبه إلى أن كل إنسان مطالب بالتدبر بقدر علمه،

فائدة التدبر:

التدبر له فوائد كثيرة، ولا أدل عليها من قول العارف بالله ابن القيم في كتابه زاد المعاد إذ يقول:" فليس شيءٌ أنفعَ للعبد في معاشه ومعادِه وأقربَ إلى نجاته من تدبرِ القرآن وإطالةِ التأملِ وجمعِ منهُ الفِكْرَ على معاني آياتِه؛ فإنها تُطلعُ العبدَ على معالِمِ الخيرِ والشرِ بحذافيرهما، وعلى طرقاتِهما وأسبابِهما وغاياتِهما وثمراتِهما ومآلِ أهلهما، وتَتُلَ في يَدِهِ مفاتيحَ كنوزِ السعادةِ والعلومِ النافعةِ وتُثَبِّتُ قواعدَ الإيمان في قلبه، وتَشَيِّدُ بنيانَه وتوَطِّدُ أركانَه، وتريه صورةَ الدنيا والآخرةِ والجنةِ والنارِ في قلبه، وتُحْضِرُهُ بين الأمم، وتُريهِ أيامَ الله فيهم، وتُبَصِّرُه مواقعَ العبر، وتُشْهِدُه عدلَ الله وفضلَه، وتُعرِّفه ذاتَه وأسماءَه وصفاتِه وأفعالَه، وما يحبُه وما يبغِضُه، وصراطَه الموصلَ إليه، وما لسالكيه بعدَ الوصولِ والقدومِ عليه، وقواطعَ الطريق وآفاتِها، وتعرفُهُ النفسَ وصفاتِها ومفسداتِ الأعمالِ ومصحِّحَاتِها، وتعرفه طريقَ أهلِ الجنةِ وأهلِ النارِ وأعمالَهم وأحوالَهم وسيماهُم، ومراتبَ أهلِ السعادةِ وأهلِ الشقاوة، وأقسامَ الخلق واجتماعَهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقَهُم فيما يفترقون فيه، وبالجملة : تعرفه الربَ المدعو إليه وطريقَ الوصول اليه"(22)

(22) مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، 452/1، دار الكتاب العربي – بيروت، تحقيق : محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية ، 1393 – 1973م.

علامات التدبر:

البكاء من خشية الله لقوله تعالى:{وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ } (1)

زيادة الخشوع وزيادة الإيمان. لقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} (2) ، {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ }(3)

الخوف من الله

القشعريرة لقول الله تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ

السجود تعظيماً لله – عز وجل – لقوله تعالى: { قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا}[23]

أعمال البر التي تحمل القارئ على التدبر:

عرفنا معنى التدبر وجوبه، و تكلمنا عن ذم هجران القرآن، عرفنا الداء، ما هو الدواء، ما هو الطريق الموصل للتدبر، ما هي الأساليب التي تعيننا وترجع بنا إلى الجادة؟

الأول: أن يقرأ القرآن بحضور قلب ويتأمل ويفكر في آياته، فكثير من الناس يقرأ القرآن وهو غافل لاه، يقرأ بلسانه، وعقله وفكره وقلبه في واد آخر، وهذا لا ينتفع من القرآن البتة، لكن يثاب على نيته قصد القراءة والتقرب إلى الله جل وعلا.

الثاني: أن لا يكون هدف الإنسان وهمّه هو تكثير الصفحات التي يقرأها، أو زيادة الختمات التي يختمها، بقدر ما يكون له همّ في تدبر ما يقرأ ويفهم كما تقدم آنفا.

الثالث:أن يحاول تذكر آيات القرآن الكريم في دقائق يومه، وأن يربط بين تلك الآيات والتوجيهات القرآنية لما يواجهه

الرابع:أن يعرف أسباب النزول ، لأن سبب النزول يعدُّ من القواعد المهمة في تدبر القرآن؛ فكثير من الآيات ارتبط نزولها بمناسبات ووقائع معينة، ولا يمكن أن تُفهم إلا بمعرفة المناسبات والوقائع التي نزلت لمعالجتها.

(23) انظر التجارة في القرآن الكريم،، عبد المغني عبد العزيز عمر ص:16

الخامس:أن يتعلم تفسير القرآن ولو باختصار شديد، فعلى قارئ القرآن أن يقرأ بعض الآيات، ثم يذهب إلى تفسير القرآن فيتعلم تفسيرها، ولو أن قارئ القرآن اصطحب معه نسخة من القرآن التي بهامشها تفسير للقرآن الكريم لكان ذلك نافعا جدا.

السادس: إنزال القرآن على الواقع، يغني أن القرآن الكريم لم ينزل لزمان معين ولا لمكان معين، وإنما نزل صالحاً للعمل والتطبيق في كل زمان وفي كل مكان، وهو لا يفهم حيًا غضًا طريًا، إلا بإنزاله على واقع الأمة وقضاياها، فلكل زمان كُفَّاره ومنافقوه، ولكل مكان فراعنته وظالموه.

السابع: سماع القرآن من الغير وقد أمرنا بالسماع لقوله عز وجل:**[وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون]**، فإن للسماع أثرا غير أثر القراءة بالنفس، وقد كان النبي عليه السلام يحب أن يسمعه من غيره لما له من زيادة في التدبر.

الثامن:تعلم اللغة العربية، فلا يمكن أن نفهم الخطاب القرآني إلا باللسان العربي المبين، تعلم النحو والصرف والأساليب البلاغية، وغيرها.

الثامن:القيام بالقرآن، وهو من أهم مفاتيح التدبر، وأعظمها شأنا، فإن اجتماع القرآن مع الصلاة تنفتح للمرء فهومات وتنقدح له معاني جديدة وخاصة إذا كان ذلك في وقت السحر لأن الذاكرة تكون في أعلى مستوى بسبب الهدوء والصفاء، وبسبب بركة الوقت، حيث النزول الإلهي وفتح أبواب السماء.. إن القراءة للقلب مثل السقي للنبات، فالسقي لا يكون في حر الشمس فإن هذا يضعف أثره، خاصة مع قلة الماء فإنه يتبخر وكذلك قراءة القرآن إذا كانت قليلة، وكانت في وقت الضجيج والمشغلات، فإن ما يرد على القلب من المعاني تبخر ولا يؤثر به،.

التاسع:كثرة التكرار ، وليس التكرار محددا بوقت، لكنه مطلوب باستمرار، وكلما كثر التكرار كان أقوى في رسوخ معاني

العاشر:الترتيل الترتيل يعني الترسل والتمهل، ومن ذلك مراعاة المقاطع والمبادئ وتمام المعنى، بحيث يكون القارئ متفكراً فيما يقرأ،

الحادي عشر: الجهر بالقراءة ليقوى التركيز ويكون التوصيل بجهتين بدلا من واحدة أي الصورة والصوت.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال:" ليس منا من لم يتغن بالقرآن يجهر به"[24].

(24) رواه البخاري باب: قول النبي عليه السلام وأسروا قولكم أو اجهروا به، رقم: 7089، والإمام أبو داود في سننه، كتاب، قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله، باب: استحباب الترتيل في القراءة، رقم: 1473وغيرهما.

فهذه بعض الوسائل والأدوات يكمل بعضها بعضا في تحقيق وتحصيل مستوى أعلى وأرفع في تدبر آيات القرآن الكريم والانتفاع والتأثر بها[25]

-مفاهيم يجب أن تصحح:

التدبر مقدم على كثرة القراءة

فالذي يقرأ مع تمعن للألفاظ أولى من كثرة القراءة من غير متعن ، والذي يقرأ سورة واحدة مع تدبر خير من أن يقرأ سورتين من غير تدبر، وهذا الذي كان عليه رسول الله عليه السلام وصحابته، وهذا هو سر نجاحهم واسمعوا رحمكم الله إلى بعض هذه النصوص:

- روى حذيفة – رضي الله عنه –: "أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فكان يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ"[26].

لم يكن هم رسول الله آخر السورة، ولم يكن همه كم يقرأ، وإنما الذي يهمه ماذا قرأ، ماذا يخاطبني به ربي، ماذا يريد الله مني من خلال هذه الآيات.

لما راجع عبد الله بن عمرو بن العاص النبي صلى الله عليه وسلم في قراءة القرآن لم يأذن له في أقل من ثلاث ليالٍ وقال: "**لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**"[27].

قال ابن مسعود: (**لا تهذوا القرآن هَذّ الشعر، ولا تنثروه نَثر الدَقل . أي: يرمون بكلماته من غير روية وتأمل، كما يُرمى الدَقل وهو رديء التمر، فإنه لرداءته لا يحفظ ويلقى منثورا .، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة**). [28]

وكان الفضيل – رحمه الله – يقول: "إنما نزل القرآن ليُعمل به فاتخذ الناس قراءته عملاً. قيل: كيف العمل به؟ قال: ليحلوا حلاله، ويحرموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه"[29].

فدلت هذه النصوص على أن فقه القرآن وفهمه هو المقصود بتلاوته لا مجرد التلاوة. وهذا هو منهج النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه، تلازم العلم والمعنى والعمل؛ فلا علم جديد إلا بعد فهم السابق

(25) انظر :خطبة بعنوان: تدبر القرآن .. لماذا وكيف؟، لإبراهيم بن عبد الرحمن التركي، موسوعة الخطب المنبرية، الموسوعة الشاملة:296/2 بتصرف.

(26) سبق تخريجه.

(27) أخرجه الترمذي، باب: ما جاء أنزل القرآن على سبعة أحرف رقم:2949، والنسائي، كتاب فضائل القرآن، باب: في كم يقرأ القرآن، رقم:8067 وغيرهما.

(28) شعب الإيمان للبيهقي، فضل في إحضار القارئ قبله ما يقرؤه، رقم: 1887

(29) اقتضاء العلم العمل للحافظ البغدادي، باب: ما قيل في حفظ حروفه وتضييع حدوده، رقم:112

والعمل به. ومن عمل بالقرآن فكأنه يقرؤه دائما وإن لم يقرأه, ومن لم يعمل بالقرآن فكأنه لم يقرأه وإن قرأه دائما.

2- من حفظ القرآن ، أو بعض القرآن وهو محتاج إلى تعلم غيره فتعلمه ما يحتاج إليه أفضل من تكرار التلاوة.

فإذا حفظ القرآن، أو بعض القرآن وهو محتاج إلى تعلم علم آخر يفيده في دينه وآخرته، كالتفسير، أو الفقه أو الحديث أو غيرها من العلوم، فإن انشغاله به وبذل الجهد في إدراكه أولى من تكرار ما يحفظه من القرآن، لأن تكرار القرآن نافلة، وتعلمه لما يفيده من العلوم الأخرى ربما تكون فريضة في حقه.

ويشهد له أن الصحابة كانوا يحفظون الآية ولا يجاوزونها إلى غيرها حتى يعملوا بها. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "**كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن**"(30).

3-من حفظ القرآن أو بعضه، وهو لا يفهم معانيه، فتعلمه لما يفهمه من معاني القرآن أفضل من تلاوة ما لا يفهم معانيه.

قال ابن تيمية في جوابه عن سؤال:"في تكرار القرآن والفقه : أيهما أفضل وأكثر أجرا :"وأما الأفضل في حق الشخص فهو بحسب حاجته ومنفعته، فإن كان يحفظ القرآن وهو محتاج إلى تعلم غيره فتعلمه ما يحتاج إليه أفضل من تكرار التلاوة التي لا يحتاج إلى تكرارها، وكذلك إن كان حفظ من القرآن ما يكفيه وهو محتاج إلى علم آخر، وكذلك إن كان قد حفظ القرآن أو بعضه، وهو لا يفهم معانيه، فتعلمه لما يفهمه من معاني القرآن أفضل من تلاوة ما لا يفهم معانيه ، وأما من تعبد بتلاوة الفقه فتعبده بتلاوة القرآن أفضل وتدبره لمعاني القرآن أفضل من تدبره لكلام لا يحتاج لتدبره والله أعلم "(31)

الخاتمة:

فتدبر يا أخي القرآن تحظ بالجنان، وتنل العلم والعرفان، و كما قال الشاعر:

فتدبر القرآن إن رمت الهدى فالعلم تحت تدبر القرآن

جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته، ويتدبره حق تدبره، ويقوم بقسطه، ويفى بشرطه، ولا يلتمس الهدى في غيره، وهدانا لآدابه الظاهره، وأحكامه الباهرة، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

(30) تفسير ابن كثير، 114/1

(31)لفتاوى الكبرى، لابن تيمية 235/2، دار المعرفة – بيروت، تحقيق: حسنين محمد مخلوف، الطبعة الأولى، 1386هـ.